مقدمة

يوجد عدد لا يحصى من الكتب التي تتناول السيرة النبوية[1]. فمن المصادر القديمة (مثل أعمال ابن إسحاق وابن هشام) إلى كتب السيرة الحديثة عن حياة رسول الله ﷺ، فضلاً عن الأعمال الشهيرة التي ألفها البحاثة المسلمون عبر التاريخ، يبدو أن كل شيء قد قيل المرة تلو المرة وأنه لم يعد هناك ما يقال؛ لذا، لم الاضطلاع بمحاولة أخرى؟

هذه السيرة لا ترمي إلى منافسة المصادر القديمة (وهي في الواقع المادة التي اشتقت منها)، أو إلى الكشف عن أي حقائق جديدة أو طرح أي تفسير جديد مبتكر أو ثوري لحياة النبوة وسياقها التاريخي، بل إن أهداف هذه الدراسة هي أكثر تواضعاً بكثير، وإن كان ذلك لا يجعل تحقيقها أكثر سهولة.

إن النبي محمداً ﷺ يحتل مكانة خاصة في حياة المسلمين وفي ضمائرهم اليوم، مثلما كان عليه الحال في الماضي، فهم يدركون أنه تلقى ونقل إليهم آخر كتب الوحي المتمثل في القرآن، الذي يقرر في مواضع كثيرة ويؤكد على المركز المتميز والفريد الذي يحتله رسول الله ، الذي كان في آن واحد نبياً ومبشراً ونموذجاً يحتذى وهادياً للبشرية، ولقد كان بشراً، لكنه عمل على تغيير العالم في ضوء الوحي والإلهام من الله، ربه ومولاه، إن كون هذا الإنسان قد اصطفاه الله لهداية البشر، وقبوله التام لبشريته هو ما يجعل محمداً ﷺ قدوة وهادياً للمؤمنين المسلمين.

إن المسلمين لا يعتبرون رسول الإسلام وسيطاً بين الله والناس، فكل فرد مدعو لمخاطبة الله مباشرة، ومع أن الرسول كان يقوم في واقع الأمر في بعض الأحيان بالاستغفار لأمته، إلا أنه كان يؤكد في كثير من الأحيان على مسؤولية كل مؤمن في صلته وعلاقته بالواحد الأحد.

كان محمد ﷺ مجرد مذكِّر للمؤمنين بوجود الله، فهو يأخذ بيدهم ليعرفهم به ويدلهم على الطريق الذي يقودهم إلى الحياة الروحية التي كان يدعو أصحابه والأمة جمعاء من خلاله إلى وجوب تجاوز ما يشعرون به من إجلال ومحبة له في العبادة والمحبة اللتين يجب عليهم تقديمهما وطلبهما من الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد.

وقد أمره الوحي أن يجيب أولئك، الذين كانوا يريدون منه، في حياته، الإتيان بالمعجزات والأدلة المحسوسة على نبوته، بأن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[2]. وهذا الوحي ذاته يبين للمؤمنين، على مرور الأجيال وإلى الأبد، الوضع الفريد لهذا الرسول الذي، رغم أنه مصطفى من الله، إلا أن صفاته البشرية ظلت ملازمة له: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[3]. هذان البعدان، بشرية الإنسان ومثالية النبي، يمثلان محور تركيزنا واهتمامنا في هذه السيرة.

هذه السيرة لن تكون سرداً مفصلاً للوقائع التاريخية والمنجزات العظيمة أو المعارك الشهيرة، فهذه المسائل تناولها كتاب السيرة الأقدمون بكثير من التفصيل، لكن اهتمامنا سيتركز بشكل رئيس، في مجرى سردنا

لقصة حياته، على الظروف والمواقف أو الكلام مما يمكن أن يكشف النقاب عن شخصية محمد ﷺ، وما يمكن أن نتعلم منها وما يمكن أن ترشدنا إليه. عندما سُئلت السيدة عائشة مرة عن شخصية النبي ﷺ، أجابت: «كان خُلقه القرآن»(4)، وبما أن القرآن يخاطب ضمير المؤمنين عبر العصور، فإن من الأمور الأساسية، على ما يبدو، أن نلاحظ الكيفية التي «يخاطبنا» بها ذلك الإنسان الذي جسدها في سلوكه، ويرشدنا ويربينا في هذه الأيام.

لذا فقد كانت الفكرة الأولى أن ننفذ إلى قلب حياة النبي ﷺ ونستقي منها تعاليمه الروحية الخالدة. لقد كانت حياته، منذ ولادته وحتى وفاته، حافلة بالأحداث والظروف والأقوال التي تنطوي على أعمق التثقيف والتنوير الروحيين. فالالتزام بالإيمان والحوار مع اللّه، ومشاهدة الطبيعة والشك في الذات والسلام الداخلي والعلاقات والفتن، وغيرها هي مواضيع تخاطبنا وتذكرنا بأنه لم يتغير شيء من حيث الأساس. فسيرة الرسول ﷺ تشير إلى المسائل الوجودية الأساسية والأزلية، وبهذا المعنى فإن حياته تلقين لنا.

ومع ذلك فإن نوعاً آخر من الدروس يمكن استقاؤه من الأحداث التاريخية التي كانت تملأ حياة النبي ﷺ. ففي القرن السابع، وفي خضم بنية اجتماعية وسياسية وثقافية، كان رسول اللّه ﷺ يعمل ويردّ ويعبّر عن البشر والأحداث باسم دينه، وفي ضوء تعاليمه الأخلاقية، إن دراسة أفعاله في هذا الإطار التاريخي والجغرافي الخاص، سوف يمكننا من إلقاء

الضوء على عدد من المبادئ المتعلقة بعلاقة الدين بالبشر والأخوة والحب والشدائد والحياة الجماعية والعدالة والقوانين والحرب. لذا، فقد حاولنا التصدي لحياة محمد ﷺ من منظور أزمتنا الراهنة، فننظر كيف أنها ما زالت تخاطبنا وتعرفنا بماهية محمد ﷺ وتعاليمه المعاصرة.

وهكذا، فإن هذه دعوة للقارئ، المسلم وغير المسلم، لأن ينظر إلى حياة النبي ﷺ ويتابع خطوات ما نشر من حياته مع المحافظة الصارمة على ما ورد في كتب السيرة الكلاسيكية (فيما يتعلق بالوقائع والتسلسل التاريخي) لكن هذا السرد يظل يطرح تأملات وملاحظات ذات طابع روحي أوفلسفي أواجتماعي أوقضائي أوسياسي أو ثقافي مردها إلى الوقائع التي يجري سردها، إن اختيار التركيز على بعض الأحداث دون غيرها يعود بالطبع إلى الرغبة في استقاء التعاليم التي تخاطب حياتنا وعصرنا الراهن. وسوف يلاحظ القارئ في كل قسم من الفصول (التي تعمدنا أن تكون قصيرة) والتي يتكون منها هذا الكتاب، عمليات انتقال متواصلة من حياة النبي والقرآن والتعاليم التي تمت بصلة إلى الحياة الروحية والظروف الراهنة والتي يمكن استقاؤها من مختلف الأوضاع التاريخية.

إن هدفنا يتوجه إلى معرفة النبي ﷺ ذاته أكثر من التعرف على شخصيته أو على أحداث حياته. إن ما ننشده هوالغوص والتعاطف وبشكل أساسي، الحب. وسواء أكان المرء مؤمناً أو غير مؤمن، فإنه ليس من المتعذر محاولة الغوص فيما كان يسعى إليه النبي ﷺ في وجوده واقتناص النبض ـ الروح ـ الذي كان يشوب رسالته ويجعلها ذات معنى. هذا هو في الواقع ما يطمح إليه هذا العمل بالدرجة الأولى: جعل حياة الرسول ﷺ

مرآة يمكن من خلالها للقراء الذين يواجهون تحديات عصرنا الغوص في أعماق نفوسهم وعقولهم والتوصل إلى فهم لمسائل الوجود والمعنى فضلاً عن اهتمامات أخلاقية واجتماعية أوسع نطاقاً.

يخاطب هذا الكتاب جمهوراً واسعاً من القراء، من مسلمين وغير مسلمين، فالنص يتميز بالدقة والصراحة الأكاديميتين بشأن المصادر الإسلامية الكلاسيكية، التي نأمل أن تكون ذات فائدة للبحاثة وللعلوم الإسلامية. وعلى نقيض ذلك، سيجد القارئ أن سرد أحداث السيرة، التي يخالطها التأمل والتفكير، ينطوي على سهولة متعمدة في الفهم ويرمي إلى نقل وإيضاح التعاليم الروحية والعالمية، ومن الواضح أن تجربة الرسول ﷺ التاريخية هي الطريقة المتميزة لإدراك المبادئ الأزلية التي يعتنقها أكثر من مليار من المسلمين في أنحاء العالم، لذا يمكن القول بأن هذا الكتاب مقدمة حية عن الإسلام.

لقد علّم الرسول ﷺ صحابته محبة الله، كما علمهم القرآن: ﴿ **قُلْ** (أيها الرسول) **إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾[5]. وقد سعى هؤلاء سعياً حثيثاً في اتباع سنته يدفعهم حبهم له الذي كان بدوره ينتعش من خلال محبتهم لله، لقد بلغت محبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه درجة كبيرة بحيث إنه عندما سمع بموت النبي ﷺ، هدد بقتل كل من يجرؤ على القول بأن النبي قد مات: بل إنه صعد إلى السماء وأنه عائد إليهم لا محالة. فقام صحابي آخر، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال لعمر أن يهدأ وصرح قائلاً: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»[6]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن**

يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[7].

تلك الكلمات أعادت إلى الأذهان محدودية حياة الرسول ﷺ، لكنها لم تقلل بأي حال ما ظل المسلمون يشعرون به من المحبة غير المحدودة والإجلال العميق لخاتم الأنبياء على مر العصور.

يتجلى هذا الإعراب عن محبتهم له في الذكر الدائم لحياته في قلوبهم وذكرياتهم وما يقومون به دائماً من صلوات على الرسول، وفي الواجب البشري والأخلاقي لاتباع سُنته في حياتهم اليومية، هذه السيرة تحاول تحقيق هذا الواجب بمحبة ومعرفة، إن حياة النبي ﷺ دعوة إلى الروحانية التي لا تتجنب أي مسألة وتعلمنا ـ خلال مجرى الأحداث والفتن والمصاعب ومن خلال سعينا ـ بأن الإجابات الصحيحة للمسائل الوجودية هي في معظم الأحيان تلك التي يمليها علينا القلب أكثر منها تلك التي يمليها العقل، فمن منطلق متجذر في الأعماق وبكل بساطة: إن من لا يستطيع أن يحب لا يمكنه أن يفهم.

obeikandi.com